***Dirasat***: Human and Social Sciences, Volume 52, No. 5, 2025, 7703

Deanship of Scientific Research

# The Effects of Learning the Arabic Language on Western Travelers' Knowledge of the Societies of the Levant: The Travels of Johann Ludwig Burckhardt, James Silk Buckingham, and Selah Merrill as an Example

***Dalal H. Al-Zubi**, Mohamed Munis Awad, Maamoun S. Abdulkarim, Mesut Idriz***

Department of History and Islamic Civilization, College of Arts, Humanities and Social Sciences, University of Sharjah, Sharjah, United Arab Emirates

Received: 15/5/2024
Revised: 17/6/2024
Accepted: 2/7/2024
Published online: 1/5/2025

* *Corresponding author:*
dal-zubi@sharjah.ac.ae

Citation: Al-zubi, D. H., Awad, M. M., Abdulkarim, M. S., & Idriz, M. (2025). The Effects of Learning the Arabic Language on Western Travelers' Knowledge of the Societies of the Levant: The Travels of Johann Ludwig Burckhardt, James Silk Buckingham, and Selah Merrill as an Example. *Dirasat: Human and Social Sciences*, 52(5), 7703. https://doi.org/10.35516/hum.v52i5.7703

© 2025 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

**Abstract**

**Objectives:** The journey is the eye of insightful geography. The importance of this study lies in shedding light on the blogs of the travelers Johann Ludwig Burckhardt (d. 1817 AD), James Silk Buckingham (d. 1855 AD), and Selah Merrill (d. 1909 AD) to answer the question: Does Western travelers' mastery of the Arabic language have an impact on understanding Arab societies correctly? Did the lack of mastery of the Arabic language create an obstacle to these travelers' communication with the residents of the areas they wanted to explore? What is the nature of the aspects that they misunderstood?

**Methods:** The researcher used descriptive, transferential, and analytical methods, as shown in the study details.

**Results:** It was noted that Selah Merrill did not mix with the residents of the areas he passed through compared to Johann Ludwig Burckhardt and James Silk Buckingham, which is attributed to Selah Merrill's lack of mastery of the Arabic language, which created an obstacle to his communication with the residents and understanding the customs and traditions of the community.

**Conclusions:** The study concluded that the explorer's mastery of the Arabic language has an important impact on the correct understanding of the community to be explored and avoiding misunderstanding or disapproval of some behaviors, as happened to Merrill.

**Keywords:** Johann Ludwig Burckhardt, James Silk Buckingham, Selah Merrill, Arabic language mastery, understanding society, travelers, the levant.

# تأثيرات تعلم اللغة العربية على معرفة الرحالة الغربيين لمجتمعات بلاد الشام: رحلات جون لويس بيركهارت "Johann Ludwig Burckhardt"، وجيمس سيلك بكنغهام "James Silk Buckingham"، وسيلاه ميريل "Selah Merrill" أُنموذجاً

***دلال حسن الزعبي*، محمد مؤنس عوض، مأمون صالح عبد الكريم، مسعود آدم إدريس**

قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، كليّة الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الشارقة، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

**ملخّص**

**الأهداف:** الرحلة عين الجغرافيا المبصرة، وتكمن أهمية هذه الدراسة في تسليط الضوء على مدونات كل من الرحالة يوهان لوديغ بيركهارت (ت. 1817م)، وجيمس سيلك بيكنغهام (ت. 1855م)، وسيلاه ميريل (ت. 1909م) للإجابة عن تساؤل، هل كان لإتقان الرحالة الغربيين للغة العربية الأثر في فهم المجتمعات العربية بالشكل الصحيح؟ وهل شكل عدم إتقان اللغة العربية عائقاً لتواصل أولئك الرحالة مع سكان المناطق المراد استكشافها؟ وما هي طبيعة الجوانب التي أخطأوا فهمها؟

**المنهجية:** استخدم الباحث المنهج الوصفي النقلي والتحليلي؛ كما هو موضح في البحث.

**النتائج:** لوحظ قلة اختلاط سيلاه ميريل بسكان المناطق التي مر بها مقارنةً بكل من يوهان لوديغ بيركهارت وجيمس سيلك بيكنغهام، والذي يعزى لعدم إتقان سيلاه ميريل للغة العربية، مما شكل عائقاً أمام تواصله مع السكان، وفهم عادات، وتقاليد المجتمع.

**الخلاصة:** خلصت الدراسة إلى أن إتقان المستكشف للغة العربية له أثر مهم على الفهم الصحيح للمجتمع المراد استكشافه، وتفادي سوء الفهم، أو استهجان بعض التصرفات كما حدث لميريل.

**الكلمات الدالة:** يوهان لوديغ بيركهارت، جيمس سيلك بيكنغهام، سيلاه ميريل، إتقان اللغة، فهم المجتمع، الرحالة، بلاد الشام.

**أولاً: المقدمة**

**اللغة وعلاقتها بالمجتمع**

قال الله تعالى في محكم كتابه (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ) (سورة: إبراهيم، الآية 4)، وهذا دليل واضح على أهمية اللغة في التواصل الاجتماعي، فكلمة اللغة لم ترد في القرآن الكريم، والمقصود بكلمة لسان في هذه الآية الكريمة هو (النطق).

لقد عرف ابن جني (ت. 392هـ) اللغة على أنها "أصوات يُعبر بها كل قوم عن أغراضهم" (ابن جني، 2008، ص 87). أما بلوخ وتراجر " Trager & Bloch" فقد عرفا اللغة على أنها "نظام اجتماعي من الرموز المنطوقة الاعتباطية تتعاون به مجموعة اجتماعية" (ليونز، 1987، ص 5). وعند ابن خلدون (ت 808هـ) نجده قال " اعلم أن اللغة في المتعارف عليه هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني، فلا بد أن تصير ملكةً مقررةً في العضو الفاعل لها، وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحهم" (ابن خلدون، 2004، ص 545). مما سبق ندرك أن اللغة ذات طبيعة صوتية، ولها أهمية وظيفية اجتماعية، وأنها متنوعة، فكل قوم أو مجتمع إنساني له اللغة الخاصة به، والتي لها الدور الفاعل في عملية التواصل والتفاهم بين أفراد المجتمع، فاللغة هبة من هبات الله-عزّ وجّل- استخدمت للتواصل والتعارف.

جاء الرحالة الغربيون لاكتشاف المجتمعات العربية، فأتقن بعضهم اللغة العربية، في حين أن البعض الآخر لم يتقنها، واعتمد على وجود مترجم مرافق له، فنجد مدوناتهم قد احتوت معلومات عن المجتمعات العربية كالعادات، والتقاليد، واللباس، وأسماء الأماكن، والعشائر، ناهيك عن المواقع الأثرية. فكان لا بد من مقارنة مدونات هؤلاء الرحالة لمعرفة مدى فهمهم لمجتمع بلاد الشام، وهل أثر عامل اللغة على مدوناتهم؟ فتم اختيار كل من يوهان لوديغ بيركهارت، وجيمس سيلك بيكنغهام، بالإضافة إلى سيلاه ميريل للإجابة عن هذه التساؤلات.

**· ما الأسباب الدافعة لاختيار كل من جيمس سيلك بيكنغهام ويوهان لوديغ بيركهارت، وسيلاه ميريل لهذه الدراسة؟**

قامت هذه الدراسة على إجراء مقارنة وتحليل لكتابات بعض الرحالة الذين زاروا بلاد الشام في القرن التاسع عشر ميلادياً، تم اختيار كل من جيمس سيلك بيكنغهام "James Silk Buckingham"، ويوهان لوديغ بيركهارت "John Lewis Burckhardt" وسيلاه ميريل "Selah Merrill"، لأنهم زاروا منطقة بلاد الشام في فترات زمنية متقاربة، فبيركهارت زار المنطقة في مطلع القرن التاسع عشر، وألف كتابه في عام 1828م بعنوان "رحلات في سوريا والديار المقدسة"، وتحدث فيه عن الآثار الموجودة في تلك المنطقة، بالإضافة إلى مدوناته اليومية مع سكان المناطق التي مر بها. بينما زار الرحالة بيكنغهام المنطقة نفسها عام 1816م، ودوّن ما رآه في كتابه "أسفار في فلسطين"، كذلك الرحالة ميريل الذي زار المنطقة في فترة زمنية مقاربة لزياراتهما، وامتدت رحلته منذ عام 1875 – 1877 وألف كتاب "شرق الأردن سجل رحلات وملاحظات في بلاد مؤاب وجلعاد وباشان".

من الأسباب الأخرى لاختيار هؤلاء الرحالة أن جيمس سيلك بيكنغهام، ويوهان لوديغ بيركهارت تعلما اللغة العربية وأتقناها، وهذا ما سهل عملية التواصل، والفهم فيما بينهما وبين سكان تلك المناطق، على النقيض من الرحالة سيلاه ميريل الذي لم يتقن لغة الضاد؛ مما اضطره إلى الاستعانة بمترجم مرافق له ليسهل عملية التواصل والفهم بينه وبين سكان المناطق التي مر بها، وكان لهذه النقطة المحورية انعكاسات أثرت في فهم المجتمعات المراد استكشافها؛ حيث إن هذه الدراسة تهدف إلى بيان أثر إتقان اللغة العربية على مدى فهم المستكشفين لتلك المجتمعات العربية بالشكل الصحيح.

**· الدراسات السابقة**

إن الدراسات التي تطرقت إلى الرحالة الذين زاروا الأردن وفلسطين في القرن التاسع عشر محدودة ومن أمثلتها:

أ. دراسة السعيدي (2006):

هي دراسة بعنوان أهمية المعرفة اللغوية في سلامة تحقيق النص التراثي، وقد هدفت هذه الدراسة إلى إظهار أهمية المعرفة اللغوية للتحقق في مجالات التراث المتنوعة على اعتبار أن التحقيق علمٌ له أصوله، ويحتاج إلى خبرة ومهارة عالية، فبيَّن أن التحقيق عملٌ مستندٌ على اللغة كتصحيح المتن، وتدقيق المعاني، وإخراجه على الشكل الذي وضعه مؤلفه، أو أقرب ما يكون إليه. وبيَّن أن تحقيق النصوص التراثية يستند إلى أمرين هما: تأصيل المتن، والمُحقق، والمعرفة اللغوية، فعلى المُحقق أن يكون عارفاً بالخط، والنحو، والمعجم، والأسلوب، وقد خلصت هذه الدراسة إلى اعتبار أن العلم باللغة العربية، والتمكن من معرفتها، وإدراك أسرارها هو ما يوصل المحقق إلى إخراج النصوص التراثية بدقة، وهو ما ميز المحقق العربي عن المستشرق.

2. دراسة وليم هيبورث دكسون )1987( William Hepworth Dixon:

هو كتاب بعنوان الأرض المقدسة، وهو عبارة عن مجموعة رسائل بعثها المستكشف لأهله عن زيارته لفلسطين، وحين عودته عام 1865 جمعها في كتاب نشره في العام نفسه واحتوى الكتاب معلومات عن انطباعات الرحالة وآرائه عن المجتمع في تلك الحقبة الزمنية، ولم يترجم الكتاب كاملاً، بل تُرْجِمَت أجزاء معينة منه.

5. دراسة وليم لينش )1987( W.F. Lynch:

في كتابه بعنوان نهر الأردن والبحر الميت، وصف لينش الرحلة الاستكشافية لبعثة البحرية الأمريكية. وهدفت هذه الدراسة معرفة طبيعة الأرض الممتدة من بحيرة طبريا، ونهر الأردن، وصولاً إلى البحر الميت. وقد دوَّن بها لينش مشاهداته وملاحظاته الشخصية، وما دار من أحداث مع بعثته. وطُبِع الكتاب عام 1849م، وظهرت طبعة جديدة ومنقحة عام 1977م. وتمت ترجمة هذا الكتاب للغة العربية.

8. دراسة كفافي (2022):

دراسة بعنوان آثار الأردن في تقارير المستكشفين والرحالة الأجانب (مرحلة ما قبل تأسيس إمارة شرقي الأردن في عام 1921م)، قدم البحث معلومات مهمة عن الرحالة الغربيين الذين زاروا الأردن في الفترة الممتدة من القرن الثامن عشر، والتاسع عشر، وقد خلصت هذه الدراسة إلى أن الهدف من زيارات هؤلاء الرحالة لم يكن لأغراض استكشاف مكونات المنطقة الطبيعية، والاقتصادية، والاجتماعية فقط، بل تعداه لنشر الحضارة الغربية والتبشير.

د. دراسة الفاعوري (2009):

هي دراسة بعنوان رحلات بيركهارت في شرقي الأردن ودورها في التواصل الحضاري "قراءة في مستويات فن التواصل"، وقد هدفت هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على فكرة التواصل الحضاري، وإظهار أهمية كتب الرحلات في تقديم صورة الآخر والتواصل معه بطريقته الخاصة. وخلصت هذه الدراسة إلى أن الرحالة بيركهارت استطاع أن يبين الاندماج الحضاري في منطقة شرق الأردن، رغم الاختلاف في الدين والعرق، مما أكد فرادة، وتميز شكل ومضمون هذه الحضارة عن حضارة بيركهارت. رغم ذلك فقد بيَّن بيركهارت أن هذا التباين الثقافي بين الحضارتين قد شكل عائقاً أمام الحيادية في طرح الموضوع.

هـ. دراسة ابن عبدالله (2011):

هي مقالة بعنوان العربية وأثرها لدى الغربيين، هدفت إلى الإشادة بثراء مفردات اللغة العربية وسعة مقدرتها، بالإضافة إلى تسليط الضوء على آراء بعض المؤرخين الغربيين باللغة العربية وانبهارهم بها، على اعتبار أنها لغة العلم المتميزة بسرعة الانتشار، وهذه ميزة اكتسبتها اللغة العربية لارتباطها بالإسلام. فأصبحت اللغة العالمية في البلدان جميعها التي دخلها العرب. ليس هذا فحسب، بل إن مفردات اللغة العربية أُقْتُبِسَت في عدد من اللغات الأجنبية كالإسبانية والبرتغالية وغيرها من اللغات. وقد خلصت هذه الدراسة إلى أن اللغة العربية تمتاز بالقوة وسعة مقدرتها، وحسن استغلالها يعتمد على التضلع في فقهها.

ح. كتاب غوستاف لوبون )1884( Gustave Le Bon:

هو كتاب بعنوان حضارة العرب، كتب فيه المستشرق الفرنسي لوبون عن رحلته إلى الشرق في القرن التاسع عشر، أقر فيه بفضل الحضارة الإسلامية على العالم الغربي، وبيَّن بأن الأقوام التي اعتنقت الإسلام، واتخذت اللغة العربية لغةً لها؛ كانت بفعل ما رأوه من عدالة تميز بها القادة العرب المنتصرون، وأكد بأن تعدد اللهجات العامية والممتد من مدينة مغادر إلى مدينة مسقط لم يعق فهم اللغة، ففي حال تعلُّم إحدى هذه اللهجات يصبح بالإمكان فهم اللهجات العربية الممتدة في المناطق الأخرى، فسكان مراكش يستطيعون وبسهولة فهم لهجة المصريين وسكان جزيرة العرب، على نقيض ذلك، نجد بأن سكان القرى الفرنسية الشمالية لا يستطيعون فهم كلمة واحدة من لهجات سكان القرى الفرنسية الجنوبية. وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية في عام 1945م.

من الملاحظ أن جميع الدراسات المذكورة آنفا ركزت إما على الرحالة الغربيين، ووصف مشاهداتهم ورحلاتهم، أو على حضارة العرب وثراء مفردات اللغة العربية وانبهار المؤرخين الغربيين بها. ولم تتطرق إلى أثر إتقان اللغة العربية على معرفة وفهم الرحالة لمجتمعات بلاد الشام في المرحلة الزمنية التي تناولتها الدراسة، والذي انعكس على نحو مباشر على مدونات هؤلاء الرحالة، الأمر الذي تبحثه دراستنا الحالية. ويضاف إلى ذلك أن اختلاف المنهج البحثي من شأنه تسليط أضواء جديدة على الموضوع بصورة تختلف عن ما تناوله باحثون سابقون.

- **تساؤلات البحث ومنهجيته**
- **تساؤلات البحث**

هنالك عدة تساؤلات مثل

-هل كان لإتقان الرحالة للغة العربية الأثر في فهم المجتمعات العربية بالشكل الصحيح؟

-هل شكل عدم إتقان اللغة العربية عائقاً لتواصل الرحالة مع سكان المناطق المراد استكشافها؟

-ما هي طبيعة الجوانب التي أخطأ أولئك الرحالة في فهمها؟

**· أهمية البحث:**

تكمن أهمية هذه الدراسة في معرفة أثر إتقان اللغة العربية على مدى فهم الرحالة للمجتمعات العربية المراد استكشافها. بالإضافة إلى توضيح طبيعة العلاقة بين المجتمع المحلي والرحالة الذين كتبوا عنه.

**· منهجية البحث**

أُعْتُمِد على المنهجية الوصفية والتحليلية والمقارنة لمدونات الرحالة الثلاثة، حيث تم تلخيص وتدوين أهم ملاحظات هؤلاء الرحالة والمستكشفين عما رأوه في أثناء زيارتهم الاستكشافية، لتلك المجتمعات العربية، ثم بعد ذلك أُجْرِيَت عملية مقارنة وتحليل لمدوناتهم والتركيز على مواطن التشابه والتباين فيها.

**ثانيا: مدونات الرحالة الأمريكي سيلا ميريل عن الأردن في كتابه "شرق الأردن سجل رحلات وملاحظات في بلاد مؤاب وجلعاد وباشان"[1]**

الرحالة سيلاه ميريل "Selah Merrill" عالم آثار في الجمعية الأمريكية لاكتشاف فلسطين، زار منطقة بلاد الشام في الفترة الزمنية الواقعة بين عامين 1875 – 1877م، قام خلالها بأربع حملات استكشافية مختلفة مع فريقه المكون من أربعة أعضاء أمريكيين، ومترجمين اثنين من كلية البروتستانت السورية في بيروت، ومصور، وطباخين، وستة خدم، بالإضافة إلى مرافقين آخرين. لم يكن سيلاه ميريل متقناً للغة العربية؛ مما استدعى وجود مترجمين مرافقين لهذه الرحلة الاستكشافية، والتي تحدث بها سيلاه ميريل عن الآثار والكائنات الحية كبعض النباتات، والطيور، والحيوانات، بالإضافة إلى تدوين معتقداته عن سكان تلك المناطق العربية التي مر بها، وقد شكل عامل عدم إتقانه للغة العربية عائقاً لفهم تلك المجتمعات على النحو الصحيح، حيث أكد أنه تلقى مساعدة من تاجر كان يعمل معلماً سابقاً، ويتقن اللغة الإنجليزية عندما تُرك بمفرده في مخيم كبير ليعتني برجلين مريضين حيث قال "إلا أنني تلقيت مساعدة كبيرة من تاجر يوجد في هذه البلدة، كان يعمل معلماً سابقاً في هذه المدرسة، ويتكلم لغتنا بشكل جيد" (ميريل، 2010، ص 102). بالإضافة إلى أنه أكد في مدونته، وفي أكثر من موقع استخدامه عبارات مثل "حسبما فهمت" أو "لا أستطيع أن أخمن" مشككاً لفهمه ومؤكداً عدم وصوله للفهم الصحيح لما يدور حوله من أحداث حيث قال "ووجدنا السكان هناك متشددين، وليسوا على استعداد لإظهار أو تقديم أية مساعدة لنا، لا أدري كان ذلك بسبب أننا غرباء وأجانب، أو بسبب أنه كان يرافقنا خيالة حكوميون، لا أستطيع أن أخمن ذلك" (ميريل، 2010، ص 333). وفي بعض الأحيان كان يكتفي بالملاحظة وعدم إجراء حوارات مع من يقابله من العرب لدرجة أنه كان لا يذكر أسماءهم ولا حتى القبائل التي ينتمون إليها، فعلى سبيل المثال نجده اكتفى باستخدام عبارة "الشيخ العربي" دون تحديد اسم القبيلة (ميريل، 2010، ص ص 121، 126). وفيما يلي ما ذكره سيلاه ميريل، والذي يظهر أهمية عنصر اللغة في فهم المجتمع المراد استكشافه:

بيَّن ميريل أن المسلم الذي يرغب في زيارة مكة المكرمة لأداء فريضة الحج لينال منزلة "محترمة" على حد قوله بين مواطنيه، وأكد بأن حجة واحدة أفضل من عدة حجات، وقال "إن الرجل الذي يحج للمرة الثالثة، فإنه يرتقي إلى مثل هذه الحالة من القداسة بحيث يعتبر نفسه فوق القانون، ويصبح ثقيلاً ومزعجاً" (ميريل، 2010، ص ص 339-340). وفي هذا فهم خاطئ فكيف لإنسان تقي ارتبطت روحه ببيت الله تعالى مرات عديدة أن يتمرد على القانون، ويصبح مزعجاً وثقيلاً وكيف لحجة واحدة أن تكون أفضل من عدة حجات فالإنسان المقتدر صحيًا وماديًا يستطيع الحج بفضل الله تعالى مرات عديدة ليس للحصول على منزلة مرموقة بين مواطنيه فحسب، بل لتغفر ذنوبه وليعود كما ولدته أمه مجردًا من الخطايا[2].

تعجب ميريل أن يضع الرجال من بين كافة عناصر المجتمع على خصورهم أحزمة عليها رصاص ومسدسات، فتساءل من أين يأتون بهذه الكمية من الذخائر (ميريل، 2010، ص 105)، إلا أنه لا يعرف بأنه كان من الضروري على الرجال في تلك الفترة الزمنية أن يحملوا سلاحاً تفادياً لأن ينعتوا بالفقر، وحمايةً لأنفسهم من أن يعتدى عليهم، الأمر الذي بينه الرحالة البريطاني جيمس سيلك بيكنغهام (بيكنغهام، 1987، صفحة 29) الذي كان متقناً للغة العربية، واستطاع من خلال حواراته التي كان يجريها مع السكان أن يفهم الجوانب المهمة لديه على النقيض من ميريل الذي اكتفى بالملاحظة، وعدم الاستفسار.

لاحظ ميريل أنه مراقب من سكان تلك المناطق التي مر بها حيث أثبت هذا الأمر في أماكن عدة من مدونته حيث قال "بيد أن صراخ رجالنا جلب أكثر

[1] باشَان هي أرض مملكة الأموريين من كنعان، وتمتد في جنوب سورية وشرقي الأردن بين جبلي حرمون وجلعاد. إنظر قاموس الكتاب المقدس، تأليف: مجمع الكنائس الشرقية، 1981، الطبعة السادسة، لبنان: مكتبة دار المشعل.

[2] روى البخاري في "صحيحه" عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (من حج لله فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه) وفي رواية له أيضًا: (من حج هذا البيت فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه) وعند مسلم نحوه.

من عشرة رجال من الفلاحين والبدو، فقد بدوا أنهم قد بزغوا من الأرض حيث لا أحد يمكنه أن يعرف من أين أتو فغالباً ما كنت مستغرباً من هذه الظاهرة، فعندما نفرض بأننا نكون وحدنا تماماً وغير مراقبين أو ملاحظين، وأنه لا يوجد هنالك أناس على بُعد أميال منا، فإننا نفاجأ بعد ذلك برؤية رأس يطل علينا من هنا أو هناك يبزغ من بين الصخور، فهم يتلصصون بحذر أولاً، ولكن سرعان ما يصيرون أجرأ وينهضون أخيراً، ويأتون عموماً إلى حيث نكون ليشبعوا فضولهم، فالبدوي يعتبر أكثر شخص فضولياً بشكل مبالغ فيه" (ميريل، 2010، ص 394). فالفضول المفرط كما فسره ميريل بالملاحظة هو الشك الذي أثبته غيره من المستكشفين بحواراتهم التي أجروها مع السكان، حيث أشاروا إلى أن هؤلاء السكان يشكون في أمر الرحالة؛ لأنهم على قناعة بأنهم لصوص أو سحرة جاءوا لنهب خيرات البلاد واستخراج الكنوز والدفائن من باطن الأرض (بيكنغهام، 1987، ص 34؛ بيركهارت، 1969، ص 143).

تحدث ميريل عن مدينة السلط وعن رفض الرعاة لبيع الحليب لفريقه؛ مما كان يضطرهم إلى أخذ الحليب عنوةً من الرعاة (ميريل، 2010، ص 117). ومن وجهة نظر ميريل أن الرعاة كانوا يدَّعون الحاجة إلى الحليب من أجل صيامهم في رمضان، وما كان يجهله هو أمر المعتقدات الدينية التي تحتم الامتناع من الطعام طول فترة الصيام، فمن الممكن أن هؤلاء الرعاة البسطاء ما كانوا إلا على قناعة بتحريم بيع الحليب لشخص مفطر في شهر رمضان الكريم، فادعوا الحاجة إليه، وامتنعوا من بيعه.

اكتفى ميريل بذكر أسماء الأشخاص العرب دون ذكر القبائل التي ينتمون إليها أو المدن كما في المثال التالي "ينتمي الشيخ موسى لإحدى القبائل في هذا الوادي، وقد خدمنا بإخلاص منذ وصولنا" (ميريل،2010، ص 185). فلم يحدد ميريل اسم القبيلة التي ينتمي إليها الشيخ موسى هذا رغم مرافقته له لفترة زمنية طويلة مقارنةً بطالب الطب الأمريكي الذي التقاه مريل لليلةٍ واحدة فقط حيث قال" نصب شاب صغير السن من أبورن بولاية نيويورك خيمته بالقرب من مخيمنا في تلك الليلة. كان يدرس الطب بجامعة فيينا منذ سنتين، وهو يسافر وقتذاك من خلال هذه البلاد وحده سوى دليله السياحي وطباخه" (ميريل، 2010، ص 309). وهذا يؤكد بأن عامل اللغة قد شكل حاجزاً أمام تواصل ميريل مع العرب الذين التقاهم، فقد جمع معلومات في ليلةٍ واحدة عن الطالب الأمريكي تفوق ما جمعه عن الشيخ موسى الذي رافقه لفترة طويلة.

رفض ميريل ما كان يجلبه السكان له من فواكه، وقد اعتقد بأنها هدايا يقدمها السكان له، وأنهم ينتظرون رد الهدية بهدية أخرى، فمن وجهة نظره بأن العرب لهم قناعة مفادها "الهدية مقابلها، أو تجلب ضعفها" (ميريل، 2010، ص 103). ناهيك عن عدم معرفة ميريل للعادات والتقاليد التي تحتم على الشيخ حسن استقبال ضيوفه، فنجده يرفض استضافة شيخ له، بالإضافة إلى أنه لم يأبه بغضب الشيخ، لأنه لم يكن مدركاً لما يفعل، حيث قال "وبدا شيخ هذه القرية غاضباً؛ لأننا لم نتوقف ونستمتع بضيافته. ولم نستطع إقناعه من أن وقتنا كان نفيساً، وتركناه وهو في مزاج سيئ" (ميريل، 2010، ص 202). وما جهله ميريل، أن إكرام الضيف عادة أصيلة عند العرب، ويعاب من لا يكرم ضيفه.

لم يعر ميريل الاهتمام لبعض الشخصيات المهمة في تلك المجتمعات التي مر بها، فعلى سبيل المثال تطرق للشيخ نمر العدوان (ت 1823م) ذاكراً لاسمه دون إعطائه لقب شيخ حيث قال "فقد كان ذلك قبر نمر العدوان، وهو جد قبيلة (العدوان)" (ميريل، 2010، ص 282)، والمعروف بأن الشيخ نمر العدوان شخصية تاريخية معروفة بالأردن لها من الثقل الاجتماعي والسياسي، بالإضافة إلى أن ميريل لم يوجه اهتماما لأبيات الشعر التي نُقشت على قبر الشيخ نمر العدوان وجهل مكانة هذا الشيخ في المجتمع لدرجة أنه كان أوضح اهتمام الأحفاد بالقبر بشكل يفوق العادة حيث قال "وقد بُني القبر بشكل جيد، ويوجد عليه نقش (كتابة) بالعربية، ويبدو أنه كان معتنى به من قِبل أحفاده باهتمام غير عادي" (ميريل، 2010، ص 282). فلم يسلط ميريل اهتماماً لأبيات الشعر التي قالها وكُتبت على قبر الشيخ نمر العدوان، إلا أن أبيات الشعر تلك تعتبر حكمة من حكم العرب التي يعتد بها، خصوصاً عندما تنقش على قبر أحد شيوخ القبائل الممتدة كالشيخ نمر العدوان. والأبيات هي:

تنقلك المنايا من ديارك... وتتحطم بديار غير دارك

دود القبر يرعى بعيونك... وعيون الناس ترعى بديارك

وما تقدر ترد الدود عنك... ولا تحرز تحامي عن ديارك

اكتفى ميريل بالملاحظة، فلم يسأل السكان عن بعض الجوانب المهمة له حيث أشار إلى حقيقة أدهشته وهي أنه كان بالقرب من المقالع أحجار عديدة مربعة الشكل وضعت هناك كما لو أنها أُعدت للشحن عن طريق البحر، أو من أجل الاستخدام، أو أن صاحبها قد مات، أو ربما أوقفت طلبيتها، أو لسبب آخر ما، فتركت كما هي عليه إلى يومنا هذا (ميريل، 2010، ص 281). فاستخدام الحرف "أو" يفيد التشكيك فكان الأولى به أن يستفهم من سكان تلك المناطق عن حقيقة تلك الأحجار أو الرجوع إلى مراجع أخرى. ناهيك عن استخدامه لعبارات مختلفة تفيد الشك أيضا كاستخدامه لعبارة "لا أدري"، لا أستطيع أن أخمن"، "حسب تقديري" (ميريل، 2010، ص ص 333، 298). فكافة هذه العبارات تؤكد عدم وصوله إلى الفهم التام لما يدور حوله؛ لأنه كثيراً ما كان يكتفي بالملاحظة وعدم إجراء حوار مع سكان تلك المناطق.

أكد ميريل أن سكان بعض المناطق التي مر بها كانوا يخشون لعنة الولي أو النبي، رغم موته لدرجة قيامهم بتخزين محصول القمح الخاص بهم بحفر عميقة قرب قبر ذلك النبي حيث لا يجرؤ أحد على سرقة ذلك المحصول "خشية لعنة ذلك الولي أو النبي المدفون هناك" (ميريل، 2010، ص 196). على

حد تعبيره. والجدير بالذكر بأن ميريل أجرى مقارنة ما بين قبر الولي أو النبي مع قبر الرئيس الأمريكي جورج واشنطن، فكتب "إلا أنني تساءلت كم هذا سيكون فعالاً لو عُمل في أمريكا، ووضع بجانب قبر جورج واشنطن مثلاً" (ميريل، 2010، ص 196). وما جهله ميريل بأن النبي والولي لهم خشية دينية في قلوب سكان تلك المناطق. أما الرئيس الأمريكي جورج واشنطن فهو رئيس دولة محلي، نادى بالمساواة والعدالة وله محبة في قلوب الشعب الأمريكي، لكنه لا يملك السلطة أو الخشية الدينية. ناهيك عن أن ميريل لم يحدد اسم ذلك الولي أو النبي، رغم أن أهمية الموضوع كانت تحتم عليه ذكر ذلك.

**ثالثا: مدونات المستكشف البريطاني جيمس سيلك بيكنغهام في كتابه "أسفار في فلسطين"**

الرحالة جيمس سيلك بيكنغهام "James Silk Buckingham" هو كاتب وصحفي بريطاني، عاش حياته في البحار، زار عدة دول نذكر منها: مصر، وسوريا، والأردن، وفلسطين، والعراق، وألف كتاب "أسفار في فلسطين" الذي ترجم إلى اللغة العربية في عام 1987م. تعلم بيكنغهام اللغة العربية وأتقنها، تميز بقربه وحسن علاقته مع سكان المناطق التي مر بها وزارها، وكان اهتمامه منصَبًّا على سلوكيات المجتمع وأفراده، وذكر العادات والتقاليد أكثر من وصف الأماكن الأثرية، فقد أجرى حوارات ماتعة مع السكان، مما مكنه من فهم عادات المجتمع وتقاليده (بيكنغهام، 1987، ص 9).

استطاع بيكنغهام أن يبين سبب حمل الرجال للسلاح دائما في تلك الحقبة الزمنية، ذاكراً عدة أسباب كان أولها حماية أنفسهم من الاعتداءات الخارجية، أما ثانيها لكي لا ينعتوا بالفقر أو الجبن، حيث قال "وهؤلاء الناس يحملون أسلحتهم دائماً، لرد غارات البدو من جهة،... والرجل الذي لا يحمل سلاحه يتهمه الآخرون بأنه فقير مدقع أو جبان" (بيكنغهام، 1987، ص 29). ناهيك عن أنه بيّن لنا بأن الفرد يستطيع زراعة أية قطعة أرض يرغب فيها دون الحاجة إلى حمل سند الملكية لتلك الأرض، وهذا أمر بالغ الأهمية فلولا قربه من الناس، واختلاطه بهم وإجراء حوارات معهم، لما استطاع معرفة هذه المعلومة (بيكنغهام، 1987، ص 29).

أكد بيكنغهام وجود قناعة لدى السكان على وجود الكنوز وقدرة المستكشف على استخراجها، فبيّن بأنه تعرض لهذا السؤال مرات عديدة، حيث قال "واحتشد حولنا أناس يسألوننا عن الكنز الذي استخرجناه من الأرض! ولكن على الرغم من ذلك فقد عاملنا أهل القرية بلطف عظيم، وقدموا لنا الطعام، دون أن يطلبوا ثمناً" (بيكنغهام، 1987، ص 34). وهنا نجد بأن بيكنغهام أثنى مرات عديدة على شيمة الكرم لدى العرب، وخاصةً مع الضيف.

كان بيكنغهام مدركاً لما يدور من معتقدات في أذهان العامة وبأنه محط أنظار الجميع، فكان حذراً من كتابة مدوناته أو إظهار أوراقه وأقلامه للناس، تفادياً من أن يشك في أمره حيث قال "وسبب ذلك يعود إلى أنني لم أجد منذ ذلك الحين برهة أنفرد فيها بنفسي، وأكتب ملاحظاتي بعيداً عن العيون، حتى لا أثير الاشتباه عندما يرى الآخرون أدوات غريبة كالقلم والورق" (بيكنغهام، 1987، ص 31). ناهيك عن أن بعض النسوة رأوه وهو يدوّن ملاحظاته، فأثرن الشك به، لكن فهمه لعادات المجتمع ساعده على تجاوز هذه العقبة، فادعى أنه تركي مسلم حيث قال "وأخذنا نردد عبارة "بسم الله الرحمن الرحيم" وأكدنا لهم أننا كنا نكتب صلاة ترحيب بظهور هلال القمر، على عادة المؤمنين"، وفي تقديري أن هذا الرحالة كان أكثر تدريباً على مهمة استكشاف الشرق من سابقه، فلديه صورة ذهنية أكثر عمقاً عن المجتمعات (بيكنغهام، 1987، ص 31).

لاحظ بيكنغهام الفرق بين كرم البدو والمزارعين على حد تعبيره حيث قال "لاحظنا الفرق بين ضيافة البدو وضيافة المزارعين" فالأول يقدم الطعام والقهوة والتبغ دون مقابل (بيكنغهام، 1987، ص ص 32،29). أما الطرف الثاني فإما أن يطلب ثمناً مقابل الطعام المقدم، أو يقدم القليل من الطعام دون تبغ أو علف للدابة. ناهيك عن أنهم كانوا ينزلون في الخان عوضا عن منزل شيخ القرية حيث قال "وقد اتخذنا من إحدى غرف الخان مكان إقامة لنا، وابتعنا طعاماً لنا ولخيولنا" (بيكنغهام، 1987، ص 33).

بيَّن بيكنغهام بعض عادات الطعام في عدة أماكن، حيث أكد أن جماعةً من البدو قرب القدس يحرصون على إطعام الضيف الخبز والملح كدليل على أنه أصبح تحت حمايتهم، وأنهم قطعوا له عهداً بالحماية (بيكنغهام، 1987، ص ص 24، 25). وأن أهل مدينة صانور[3] الفلسطينية يكرمون الضيف ويطعمونه أولاً، وبعد أن يكتفي الضيف يتقدم باقي الحضور لتناول الطعام (بيكنغهام، 1987، ص 43). على خلاف بدو الأردن، فقد كان الشيخ يذبح خروفا إكراما للضيف، حيث كان رجال العشيرة يجتمعون في بيت الشعر الخاص بالشيخ ليشتركوا في الوليمة، وليؤكدوا ترحيبهم بالضيف (بيكنغهام، 1987، ص 29).

تطرق بيكنغهام إلى نسيج المجتمع الفلسطيني، وأقر بوجود ثلث السكان في مدينتي الرملة، ويافا من المسيحيين، والثلثان من المسلمين (بيكنغهام، 1987، ص 19). أما مدينة الناصرة، فأغلب سكانها من المسيحيين، وجميعهم عرب، ويعيشون حياة تسامح رغم اختلاف مذاهبهم؛ مما يدل على التنوع الطائفي في المجتمع الفلسطيني والجميع يعيش بسلام (بيكنغهام، 1987، ص 15).

الجدير بالذكر بأن بيكنغهام تطرق إلى النبيذ في تلك المجتمعات القريبة من القدس حيث قال "وكان الرهبان يقدمون الخبز والخضار والنبيذ، من أصناف جيدة، ولكن اللحم قليل، وثمنه مرتفع، وليس بالمستطاع الحصول على السمك "(بيكنغهام، 1987، ص 23). ناهيك عن أنه ذكر أن الأسعار في مدينة القدس أغلى ثمناً من سوريا. أما عن الأردن وتحديدا مدينة جرش، فقال "أما الخمرة فغير معروفة هنا" (بيكنغهام، 1987، ص 31). فرغم وفرة

[3] صانور هي إحدى بلديات محافظة جنين، وتقع من الجنوب الشرقي للمحافظة.

العنب، إلا أنهم لا يصنعون النبيذ، ويكتفون بتجفيفه ليصبح زبيباً (بيكنغهام، 1987، ص 31).

ذكر بيكنغهام أمر حاج يسمى الحاج أحمد جرار[4]الذي أحسن استقباله قبل أن يرى رسالة الدعم المرسلة له من رئيس الدير في الناصرة، فالحاج أحمد كانت له سلطة مطلقة على عدد من البلدان والقرى، إلا أنه يحكم باللين، ويوفر الرخاء والأمن للسكان، علماً بأنه حج مرتين لمكة المكرمة. وعندما أخبره بيكنغهام عن عجزه عن رد هذه الجمائل كان رد الحاج أحمد "أنه يشعر بالسعادة لفعل الخير، خاصة بالنسبة إلى شخص مثلي غريب وبعيد عن أهله وبلاده" (بيكنغهام، 1987، ص 44). وهذا يدل على حسن أخلاقه واتباعه لشعائر الدين.

**رابعا: مدونات المستكشف السويسري بيركهارت في كتابه "رحلات بيركهارت في سوريا الجنوبية"**

ولد الرحالة والمؤرخ السويسري يوهان لودويغ بيركهارت "John Lewis Burckhardt" في مدينة لوزان "Lausanne" عام 1784م، نشأ وترعرع في ألمانيا وإنكلترا، ودرس اللغة العربية في جامعة كامبردج العريقة، واعتنق الدين الإسلامي، وقام بأداء فريضة الحج والوقوف في جبل عرفات، وأصبح اسمه الشيخ إبراهيم بعد إسلامه. درس اللغة العربية حتى أتقنها وألمّ بعلوم القرآن الكريم. وقام برحلات طويلة إلى الأردن، وسوريا، وفلسطين، ومصر، وغيرها من الدول، وصدر له كتاب في عام 1828م بعنوان "رحلات في سوريا والديار المقدسة" والذي ترجم إلى اللغة العربية (بيركهارت، 1969، ص ص 3- 13).

أكد بيركهارت أن السكان على قناعة بأن المستكشف ساحر، وله القدرة على استخراج الكنوز، ليس هذا فحسب، بل إنه كان يخشى أن يظهر البوصلة التي يستخدمها أمام الناس حيث قال "خلال جميع أسفاري في الصحاري لم أسمح أبدا للعرب برؤية بوصلتي؛ لأنهم سيعتبرونها بكل تأكيد آلة سحر "(بيركهارت، 1969، ص 158). حيث أكد بأن السكان كانوا يتبعونه ليروا بأم أعينهم ما كان يبحث عنه، وأنهم على قناعة بأنه لن يكتشف تلك الكنوز أمام أعينهم، وأن لديه القدرة على أن يأمر تلك الكنوز باللحاق به إلى أي مكان يريده حيث سمعهم لعدة مرات يكررون عبارة "معه دلايل"[5] أي أن بيركهارت لديه أدلة على وجود كنوز فهو قادر على فهم لهجتهم المحلية التي ينطقونها (بيركهارت، 1969، ص 143).

فهم بيركهارات عادات العرب وتقاليدهم وشدة الكرم لديهم وحبهم لإكرام ضيوفهم دون مقابل حيث ذكر ذلك عدة مرات في مدونته، ونذكر منها "أن الضيف يُقدم إليه ثلاث وجبات يوميًا. وأهم أصناف الطبيخ ما تألف من اللحم والبرغل، والكشك. كما يقدم يومياً مُدًّا من الشعير لحصان الضيف[6]. ولا ينتظر المضيف شيئًا من الضيف مهما بلغ فقره" (بيركهارت، 1969، ص 44). ناهيك عن الكثير من فناجين القهوة، والتبغ التي تقدم للضيف. ليس هذا فحسب، بل إن العرب يفضّلون الضيف على أنفسهم، فذكر ما حدث مع بعض الرعاة حيث قال" صادفنا هنا بعض الرعاة الذين ينتمون إلى المعزية، وهي عشيرة من البدو تنزل بين مصر والبحر الأحمر، وكان هؤلاء الرعاة منهمكين في قطيع كبير من الإبل، وكان من لطفهم معنا أنهم فسحوا لنا مجالاً عند الآبار، على اعتبار أننا غرباء" (بيركهارت، 1969، ص ص 164- 165).

مما ذكر سابقًا ندرك بأن بيركهارت كان شديد الاهتمام بذكر الأشخاص ولمن ينتمون من القبائل والعشائر، فبين بأن الرعاة من المعزية، وهي عشيرة بدوية، حيث كان على دراية بأن البدو مقسمون إلى عشائر ولكل عشيرة شيخ يحكمها، وأنَّ لهم شيخ الشيوخ يعودون إليه في الأمور المهمة، وبفضل معرفته للغة العربية وحسن مخالطته للسكان استطاع أن يتعرف على أنّ مسيحيي الكرك لهم شيخان، ويستشيرون الكاهن في أمور طائفتهم حيث قال "هؤلاء البدو مقسمون إلى حمايل (عشائر) مختلفة أكثرها عدداً حمولتا الضمور، وبنو النعيم وكل عشيرة لها شيخها الذي يتشاور مع شيخ الشيوخ في الأمور الهامة. ومسيحيو الكرك لهم أيضا شيخان يديران شؤون طائفتهم بالاشتراك مع الكاهن" (بيركهارت، 1969، ص ص 106- 107).

أكد بيركهارت بأن سكان المناطق الممتدة على خط الحجاز أكثر التزاماً بشعائر الدين عن باقي المناطق البعيدة عن خط الحجاز حيث قال "وسكان القرى الواقعة على طريق الحج يفوقون غيرهم في التشدد في الدين" (بيركهارت، 1969، ص 14). وأكد أن سكان مدينة السلط، ورغم أنهم يتمتعون بوفرة العنب ذي الجودة العالية، إلا أنهم يكتفون بتجفيف حبات العنب، وصناعة الزبيب فقط، ثم بعد ذلك يتم بيعها بالقدس. وفي هذا دليل واضح على التزامهم بشعائر الدين وامتناعهم من فعل المحرمات التي نهى الله عنها (بيركهارت، 1969، ص 79).

تطرق بيركهارت إلى المكانة الدينية لقبر النبي يوشع لدى المسلمين والمسيحيين على حدٍ سواء، وأنهم يعظمون هذه الأضرحة، ويقدمون لها الأضحيات، والصلوات، والبخور، ليس هذا فحسب، بل إنهم يطلبون العون منها أيضاً، حيث قال "قبر النبي يوشع الذي يعظمه المسلمون والمسيحيون على السواء، والذي اعتاد أتباع هاتين الديانتين أن يقيموا فيه الصلوات، ويقدموا الأضاحي. كما جرت العادة فالأضحية خروف يذبح إكراما أو بخور زكي الرائحة يحرق فوق ضريحه. وقد دعيت للاشتراك في تناول وجبة من لحم الخروف الذي قدمه متوسل استجاب النبي لصلواته" (بيركهارت، 1969، ص ص 80- 81).

---

[4] عين أحمد آغا يوسف الجرار، في عام 1819م، متسلما على نابلس، إلا أنه توفي بعدها بثلاثة أشهر. قال عنه إحسان النمر "وبموته، فقد جبل نابلس أميرًا خطيرا قوي النفس والعصبية شجاعا عزيزا... وفقد آل جرار كبيرا لم يرزقوا بعده مثله. وبموته فقدت نابلس حاكما وطنيا مهابا" تاريخ جبل نابلس والبلقاء، الجزء الأول، الطبعة الثانية، نابلس، 1975، ص ص 281- 284.

[5] هي لهجة عامية تعني أنه يمتلك دلائل على وجود كنوز.

[6] المد: وحدة قياس للوزن مقدارها عشرة كيلوات و240 غراما.

استغل بيركهارت فهمه لعادات المجتمع في أن يتجنب طريق الشوبك للوصول إلى العقبة ثم مصر، علماً بأنه لا يملك أوراقاً تظهر هويته ولا من أين جاء، وهذا الأمر أثار حفيظة المجتمع وشكهم به، فادعى أنه نذر بأن يذبح شاةً على قبر النبي هارون ليسلك طريق وادي موسى حيث قال "فإن عزوفي عن سلوكها لمجرد رغبتي الفضولية في مشاهدة وادي موسى يبدو مريباً جداً في أعين العرب؛ ولهذا ادعيت بأنني نذرت ذبح عنزة تكريماً لهارون النبي... ولم يكن لدليلي ما يعترض عليه في ذلك، فقد أخرسه كلياً الخوف من أن يجر على نفسه غضب هارون في حالة مقاومته لهذه الرغبة" وهذا دليلٌ واضحٌ على فهمه للأبعاد الدينية للمجتمع (بيركهارت، 1969، ص 133).

إتقان بيركهارت للغة العربية مكنه من معرفة أصل أسماء المدن حيث قال "المكان اسمه العقبة، والتي تعني بالعربية الصخرة أو المنحدر الكبير" (بيركهارت، 1969، ص 169). وهذا بالفعل ما تمثله التضاريس الجغرافية بالعقبة. ناهيك عن كلمة "الدير" والتي بيّن بأن العرب أطلقوا هذا الاسم على الخرائب لاعتقادهم بأن الرهبان قد سكنوا تلك المناطق (بيركهارت، 1969، ص 171).

ليس هذا فحسب، بل إن بيركهارت كان يعلم ما يحمده العرب من تصرفات الرجال، ويستغلها خير استغلال، فكان بيركهارت يقفز عن الجمل في أثناء المسير ليتفادى استخدام البوصلة أمام العرب، فقال "وحينما أكون ممتطياً جملاً، وهو الذي لا يمكن إيقافه أبداً، بينما يواصل رفاقه السير، كنت مضطراً أن أقفز عنه حينما أريد أخذ اتجاه، ثم أقعد القرفصاء على الطريقة الشرقية كأنما ألبي نداء الطبيعة. ويعجب العرب كثيراً بالمسافر الذي يقفز عن بهيمته، ثم يعود فيمتطيها دون أن يوقفها" (بيركهارت، 1969، ص 158).

كان لإتقانه اللغة العربية الفضل بمعرفته أن مسلمي ومسيحي مدينتي السلط، والكرك، وغيرها من المدن الأردنية يعيشون سويًا بمودة ومساواة، فتطرق بيركهارت إلى نسيج المجتمع الأردني، والحياة السلمية التي يعيشها المسلمون والمسيحيون داخل الأردن سويا، حيث قال "وتتكون المدينة من أربعمئة عائلة من المسلمين وثمانين عائلة من النصارى، ويعيشون بعضهم مع بعض في وئام وإخاء تام" (بيركهاردت 1978، 78، ص ص 105). وهذا دليلٌ واضح على تلاحم المجتمع الأردني منذ القدم؛ فلا عداء بين مسيحيٍ ومسلم.

تطرق بيركهارت أيضًا إلى نقطة في غاية الأهمية، فذكر أسماء العشائر، وأظهر أماكن وجودها. فمثلاً عشيرة بركات هي العشيرة المهيمنة، وذات السلطة في عجلون (بيركهارت، 1969، ص 32). ولم يكتف بذكر أسماء القبائل، بل تطرق أيضًا إلى علاقات المصاهرة حيث قال "كان أحد شيوخ السلط البارزين متزوجاً من ابنة شيخ هذه العشيرة التي تعرف بعشيرة الغنيمات، ويسمى شيخها عبد المحسن وهو من الرجال المتزعمين في البلقاء" (بيركهارت، 1969، ص 94). بالإضافة إلى أنه فرق بين مسميات البدو، والفلاحين على بعض الأماكن، فعلى سبيل المثال؛ ذكر أن بركة الماء الواقعة قرب تل أبي ندى لها عدة أسماء حيث قال" يدعوها البدو بركة الرام، ويدعوها الفلاحون بركة أبي الرميل" (بيركهارت، 1969، ص 50). ناهيك عن وادي الدير "الذي يطلق عليه اسم سيل جرش أو نهر جرش، بالإضافة إلى اسم القيروان" (بيركهارت، 1969، ص 18).

استطاع بيركهارت بأن يسلط الضوء على بعض العادات والتقاليد المتبعة، وبيّن بأنه في مدينة الكرك الأردنية كان الرجل يعاب إذا باع السمن لوفرته حيث قال "وإذا عرف عن شخص أنه باع هذه المادة، أو قايض بها تبقى بناته أو أخواته دون زواج. إذ لا يجرؤ أحد ربط نفسه بعائلة بائع السمن، وهو أحقر لقب يمكن أن ينعت به رجل في الكرك. وهذه العادة يمتاز بها هذا المكان، وغير معروف لدى البدو ". وأظهر بأن "الفتيت" هو الطعام الشائع لديهم، وبيّن بأن الكرم محمود، وكلما زاد كرم الشخص زادت شهرته (بيركهارت، 1969، ص 108).

**خامساً: مقارنة المدونات**

**1.** أكد المستكشف ميريل على أنه تلقى المساعدة بالترجمة من تاجر يتقن اللغة الإنجليزية وقت اعتنائه بشخصين مريضين، علماً بأنهما لا يتقنان اللغة الإنجليزية التي يتحدث بها (ميريل،2010، ص 117). بينما نجد تأكيداً من المستكشف بيكنغهام على إجراء حوارات مطولة مع السكان حيث قال "ودار الحديث حول الأوضاع في أوروبا، والبلاد التي زرتها... فتبادلت الحديث معه عن الأماكن التي زارها كلانا" (بيكنغهام، 1987، ص 40). ناهيك عن بيركهارت الذي أكد هو الآخر على إجراء حوار مع الناس حيث قال "وقضينا يوماً ساراً للغاية تحت شجرة سنديان رائعة تقع بجانب الضريح مباشرةً. وكانت زوجات وبنات المدعوين حاضرات، واشتركن في الحديث بحرية" (بيركهارت، 1969، ص 81).

**2.** قام ميريل باستخدام عبارات "لا أستطيع أن أخمن" أو "لا أدري" وغيرها من العبارات في عدة مواقع كما -ذُكِر سابقاً، مؤكداً عدم فهمه لما يدور حوله من أحداث. بينما نجد بيركهارت قد استخدم هذه العبارات لعدم التأكد من دقة رسمه للآثار، ولم يستخدمها للمجتمع حيث قال "ولا أستطيع أن أجزم بدقة هذا المخطط فيما يتعلق بالمسافات؛ لأنني قمت بأعمال المسح خلال أربع ساعات على الأكثر" (بيركهارت، 1969، ص 19). على النقيض من ذلك فإن بيكنغهام لم يستخدم هذه العبارات في مدونته.

**3.** اعتمد ميريل في معظم الأحيان على الملاحظة فقط، ولم يجر حوارات مع السكان، مما أبقى بعض الأمور عن المجتمع مبهمة لديه، ولم يعرف سبباً لها، فعلى سبيل المثال لم يذكر ما سبب بناء البدو لأكشاك من القصب بجانب خيامهم، وهذا ما لم يعتد البدو صنعه، (ميريل،2010، ص 287). إلا أننا نجد بيكنغهام قد فهم عدة أمور لا يمكنه الوصول لها إلا بالحوار مع سكان تلك المناطق، فعرف أن سكان منطقة جلعاد في الأردن كانوا في تلك الحقبة الزمنية قادرين على زراعة أي قطعة أرض دون الحاجة إلى سند ملكية لها، ناهيك عن تفسيره لماذا يحمل السكان السلاح دائما في تلك المنطقة

(بيكنغهام، 1987، ص 29). ولو نظرنا إلى بيركهارت لوجدناه متسائلاً عن شتى الأمور حتى أسماء القبائل، حيث قال "إلا أنه لم يستطع أحد أن يخبرني عن أصل هذه التسميات، والأهالي لا يزعمون أنهم من سلالة هذه العشائر، لكنهم يقولون إن هذه أماكن سكناهم منذ أمد بعيد" (بيركهارت، 1969، ص ص 33- 34).

**4.** ادعى ميريل بأن حجة واحدة لمكة المكرمة أفضل من عدة حجات لدى المسلمين، وأن الحاج الذي يحج لعدة مرات يصبح ثقيلاً ومزعجاً حيث يعتبر نفسه فوق القانون على حد قوله (ميريل، 2010، ص ص 339- 340). إلا أننا نجد بيكنغهام يفند هذا الادعاء عندما وصف لنا الحاج أحمد جرار الذي حج لبيت الله الحرام مرتين، وهو يمتلك السلطة المطلقة على عدة مناطق بصفته الزعيم المعين من والي دمشق، إلا أنه كريم وشهم، ويحكم بأسلوب اللين ناهيك عن أنه بيَّن لبيكنغهام سروره في تقديم المساعدة للناس حيث قال "إنه يشعر بالسعادة لفعل الخير، خاصة بالنسبة إلى شخص مثلي غريب وبعيد عن أهله وبلاده" (بيكنغهام، 1987، ص 44). أما بيركهارت فأكد لنا أن سكان القرى الواقعة على طريق الحج يفوقون غيرهم في الالتزام بالدين.

**5.** تعجب ميريل من وضع الرجال لأحزمة على خصورهم تحمل كمية من الرصاص والسلاح، ولم يذكر السبب لهذا الفعل (ميريل،2010، ص 105). إلا أننا نجد بيكنغهام يظهر الأسباب لحمل السلاح، والتي تعود إلى حماية أنفسهم، ولتفادي أن ينعتوا بالفقر والجبن (بيكنغهام، 1987، ص 29).

**6.** أكد ميريل بأنه محط أنظار المجتمع، وأنه مراقب من الجميع، لكنه لم يعرف السبب وراء هذا التصرف، واكتفى بوصفه فضولاً مفرطاً، (ميريل،2010، ص ص 394، 211، 145). إلا أن بيركهارت أكد في مدوناته على أن السكان لديهم قناعة بأن المستكشف ما هو إلا ساحر جاء لاستخراج الكنوز من باطن الأرض (بيركهارت، 1969، ص 143). أما بيكنغهام فأكد القناعة الموجودة لدى السكان بوجود كنوز أُسْتُخْرِجَت من قبله (بيكنغهام، 1987، ص 34). ناهيك عن الشك به حيث قال "اجتمع حولنا رجال القرية وصبيتها، وأخذوا يمطروننا بالأسئلة عن رحلتنا، والغاية منها" فكلمة يمطروننا تدل على كثرة الأسئلة الموجهة لهم (بيكنغهام، 1987، ص 25).

**7.** غضب ميريل ورفاقه من رفض الرعاة لبيع الحليب لهم في شهر رمضان، مما استدعاه إلى أخذ الحليب عنوةً من الرعاة، ولم يعرف سبب الرفض، (ميريل،2010، ص 117). إلا أن بيكنغهام أكد كرم الرعاة ومبادرتهم لتقديم الحليب والخبز له بلا مقابل حيث قال "فاستقبلونا بحرارة وأعدوا لنا وجبة من الخبز الساخن وحليب الماعز" (بيكنغهام، 1987، ص 26). ناهيك عن بيركهارت الذي بيَّن بأن الرعاة بدَّوه على أنفسهم، وسمحوا له بأن يرد البئر قبلهم؛ لأنه غريب عن المنطقة (بيركهارت، 1969، ص ص 164- 165).

**8.** تطرق ميريل إلى مقام الأولياء، واكتفى بعدم ذكر اسم الشخص المعني بهذا الضريح، فنجده يقول "وإلا سقطت عليه لعنة ذلك الولي أو النبي المدفون هناك" (ميريل،2010، ص 196)، فهو لم يحدد هل هذا الضريح يعود إلى نبي، أم لصحابي، أم لولي. ناهيك عن إجراء مقارنة مغلوطة ما بين ضريح نبي وقبر جورج واشنطن، متجاوزاً للمقامات والفروقات بين الطرفين. على النقيض من بيركهارت الذي كان مدركاً لمقام النبي هارون، وعالماً بعادات المجتمع التي تخشى غضب النبي، فاستغل هذا الأمر خير استغلال للوصول إلى مبتغاه ( بيركهارت، 1969، ص 133).

**9.** ظن ميريل بأن العرب يريدون مقابلاً لإكرامهم له، فكان يرفض ما يقدمه له السكان من فاكهة ظاناً بأنه سوف يدفع أكثر من ثمنها لردها، فنجده يقول "فلو قبلتها، سواء قبلت العنب أو أية فاكهة أخرى، فإن ذلك كان سيكلفني أكثر منها بكثير" (ميريل،2010، ص 103). لكننا نجد بأن كلاً من بيركهارت وبيكنغهام قد أكدا حسن استقبال العرب لضيوفهم، فهم كرماء لدرجة أنهم يقدمون الطعام والتبغ للضيف وكذلك في التعامل مع دوابهم بلا مقابل.

**10.** لم يعر ميريل اهتماماً لغضب الشيخ، فلم يعلم أن إكرام الضيف عادة من عادات العرب، وحرص الشيوخ على إكرام ضيوفهم (ميريل،2010، ص 103). على النقيض من ذلك، نجد بيركهارت يؤكد ارتفاع مكانة الضيف عند العرب، وحرصهم على إكرامهم له مهما كانت أوضاعهم، فذكر أن الشيخ أعد له وليمة، رغم أنه يحتضر حيث قال "وقد نزلنا في خيمة الشيخ الذي كان يحتضر بسبب جرح أصابه قبل بضعة أيام من طعنة رمح، ولكن كرم الضيافة عند هؤلاء القوم واعتناءهم بتأمين وسائل الراحة للمسافر هي على هذا النحو، حتى إننا لم نعلم بالمحنة التي حلت بالشيخ إلا في اليوم التالي. وكان الشيخ في خيمة النساء، ولم نسمعه يتفوه بأية شكوى، فإن ذلك سيحول دون استمتاعنا بعشائنا" (بيركهارت، 1969، ص ص 100- 101).

**11.** لم يكن ميريل شديد الاهتمام بذكر أسماء العشائر والقبائل أو حتى أسماء الأشخاص الذين مر بهم، فنجده يستخدم "الشيخ العربي" عدة مرات في مدونته، دون ذكر أي معلومة عن القبيلة التي ينتمي إليها هذا الشيخ (ميريل، 2010، ص ص 126- 121). إلا أننا نجد أنّ كلًّا من بيركهارت وبيكنغهام قد أوليا تلك المسائل اهتماما كبيرا (بيركهارت، 1969، ص ص 101، 32؛ بيكنغهام، 1987، ص 26).

**12.**على الرغم من الاختلافات بين الرحالة الثلاثة، إلا أن جميعهم انطلقوا من مركزية غربية استعلائية تنظر إلى الشرق نظرة دونية، وكلٌ قدِم للمنطقة ولديه تكوين علمي ما عنها، بغض النظر عن جزئية اللغة.

**سادساً: الخاتمة**

خلصت الدراسة إلى أن إتقان الرحالة للغة العربية كان له الأثر الواضح على فهم المجتمعات العربية المراد اكتشافها، فانعكس ذلك على تدوين معلومات أكثر دقة عن المجتمع، كأسماء العشائر والأسماء التي كان يطلقها العرب على بعض الأماكن ومعتقداتهم عنها، ناهيك عن العادات والتقاليد. فمعرفة لغة المجتمع؛ مكّن الرحالة من إجراء حوارات مع السكان، مما انعكس إيجابا على فهم عادات وتقاليد المجتمع المراد اكتشافه بشكل أدق وأوسع، فاستطاعوا أن يتجاوزوا عدة عقبات واجهتهم.

كما أدى عدم إتقان الرحالة للغة المجتمع المراد اكتشافه إلى الاكتفاء بالملاحظة عوضاً عن الحوار في معظم الأحيان، فتبقى الأمور مبهمة وغير مفسرة، كما حدث مع ميريل الذي لم يتقن اللغة العربية، واعتمد على وجود مترجم مرافق له، فبقيت عدة أمور عن المجتمع بلا تفسير، فخرج بأحكام وتعميمات مغلوطة عن السكان، وهذا ما نفاه كل من بيكنغهام وبيركهارت بفضل حواراتهم، وتمكنهم من فهم لغة المجتمع. فكان لمعرفة لغة المجتمع الأثر الواضح على فهم الجوانب الاجتماعية والدينية، أما الجوانب الجغرافية والأثرية، فلم تتأثر بعامل اللغة، فكانت مدونات الرحالة تعكس قدراتهم العلمية في اختصاصاتهم، وقدرتهم على اكتشاف المواقع الأثرية والبيئة.

**المصادر والمراجع**


البخاري، م. (2019). *موسوعة صحيح البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه. اسم الناسخ: المحدّث المؤرخ الأديب أحمد بن عبد الوهاب النويري. كتاب: الحج، باب: فضل الحج المبرور، رقم 1521، ج1، ص118*. المملكة العربية السعودية: دار عطاءات العلم للنشر.

بيكنغهام، ج. (1978). *رحلات في الأردن وفلسطين*. (ط1). الأردن: دائرة الثقافة والفنون.

بيركهاردت، ي. (1978). *رحلات بيركهارت في سوريا الجنوبية*. (ج2). الأردن: دائرة الثقافة والفنون.

ابن جني، ع. (2008). *الخصائص*. (ط3). لبنان: دار الكتب العلمية.

ابن خلدون، م. (2004). *المقدمة*. لبنان: المكتبة العصرية.

دكسون، و. (1978). *الأرض المقدسة، في: رحلات في الأردن وفلسطين*. (ط1). الأردن: دائرة الثقافة والفنون.

سعيدي، ا. (2006). *أهمية المعرفة اللغوية في سلامة تحقيق النص التراثي، في: تحقيق النصوص التراثية، التصور والواقع*. المغرب: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس الرباط سلسلة ندوات ومناظرات.

بن عبد الله، ع. (2011). *العربية وأثرها لدى الغربيين*. من موقع إسلام ويب. https://islamweb.net/ar/print.php?id=168523

فاعوري، أ. (2009). رحلات بيركهارت في شرقي الأردن ودورها في التواصل الحضاري قراءة في مستويات من التواصل. *المؤتمر الدولي الرابع عشر*، جامعة فيلادلفيا، عمان، الاردن.

كفافي، ز. (2022). آثار الأردن في تقارير المستكشفين والرَّحالة الأجانب مرحلة ما قبل تأسيس إمارة شرقي الأردن في عام 1921م. *المجلة الأردنية للتاريخ والآثار*، 16(3)، 139-183.

لوبون، ج. (2013). *حضارة العرب*. المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي.

لينش، و. (1978). *نهر الأردن والبحر الميت الرحلة الاستكشافية لبعثة البحرية الأمريكية، في: رحلات في الأردن وفلسطين*. (ط1). الأردن: دائرة الثقافة والفنون.

ليونز، ي. (1987). *اللغة وعلم اللغة*. (ج2). مصر: دار النهضة العربية.

مجمع الكنائس الشرقية. (1981). *قاموس الكتاب المقدس*. (ط6). لبنان: مكتبة دار المشعل.

ميريل، س. (2010). *شرق الأردن سجل رحلات وملاحظات في بلاد مؤاب وجلعاد وباشان*. (ط1). الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع.

نمر، ا. (1975). *تاريخ جبل نابلس والبلقاء*. (ط2). فلسطين: مطبعة جمعية عمال المطابع التعاونية بنابلس.


**References**


Albukhari, M. (2019). *Encyclopedia of Sahih Al-Bukhari: Al-Jami' Al-Musnad Al-Sahih, a summary of the affairs of the Messenger of God, may God bless him and grant him peace, his Sunnahs and his days. Name of the copyist: the hadith historian and writer Ahmed bin Abdul Wahhab Al-Nuwairi. Book: Hajj, Chapter: The Virtue of the Accepted Hajj, No. 1521, Part 1, p. 118.* Kingdom of Saudi Arabia: Dar Attaat Al-Ilm Publishing House.

Beckingham, J. (1978). *Trips in Jordan and Palestine*. (1st ed.). Jordan: Department of Arts and Culture.

Burckhardt, J. (1978). *Burckhardt's travels in southern Syria*. Jordan: Department of Arts and Culture.

Ibn Jinni, O. (2008). *Alkhasaaes.* (3rd ed.). Lebanon: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah.

Ibn Khaldun, M. (2004). *Almukademah*. Lebanon: Modern Library.

Dixon, W. (1978). *The Holy Land, in: Travels in Jordan and Palestine.* (1st ed.). Jordan: Department of Arts and Culture.

Saidi, M. (2006). *The importance of linguistic knowledge in the proper verification of heritage texts, in: Verification of heritage texts, perception and reality.* Morocco: Publications of the Faculty of Arts and Human Sciences, Mohammed V University, Rabat, a series of seminars and debates.

Bin Abdullah, Abd. (2011). *Arabic and its impact on Westerners*. From the Islam Web website https://islamweb.net/ar/print.php?id=168523.

Faouri, A. (2009). Burckhardt's travels in eastern Jordan and their role in cultural communication. A reading on levels of communication. *Fourteenth International Conference*, Philadelphia University, Amman, Jordan.

Kafafi, Z. (2022). The effects of Jordan in the reports of foreign explorers and travelers, the period before the establishment of the Emirate of Transjordan in 1291 AD. *Jordan Journal of History and Archeology*, 16(3), 139-183.

Le Bon, G. (2013). *Arab civilization*. United Kingdom: Hindawi Foundation.

Lynch, W. (1978). *The Jordan River and Dead Sea Expedition of the United States Navy Expedition, in: Travels in Jordan and Palestine.* (1st ed.). Jordan: Department of Arts and Culture.

Lyons, J. (1987). *Language and linguistics*. Egypt: Dar Al Nahda Al Arabiya.

Congregation of the Oriental Churches. (1981). *Dictionary of the Holy Bible*. (6th ed.), Lebanon: Dar Al-Mashaal Library.

Merrill, C. (2010). *Transjordan recorded travels and observations in the countries of Moab, Gilead, and Bashan.* (1st ed.). Jordan: Al Ahlia Publishing and Distribution.

Nimr, I. (1975). *History of Jabal Nablus and Balqa*. (2nd ed.). Palestine: Nablus Cooperative Printing Press.